

هذا من حيث الحقيقة العلمية وكيفية الوصول إليها . ولولم يكن في الامر غير ذلك لما اجهدنا نفسنا في تلخيص مقالة كلها بكلمات ومصطلحات علمية ولكن فيه شيئين آخرين حريين بالنظر الاول ان الفرغال المشار اليه وكل المواد الماثلة له تكون كثيرة في الاشربة الجديدة وقليلة في الاشربة العتيقة او البالغة وهذا ينطبق على ما يعلم من ان المسطار اي الخمر الحديثة تصرع شاربها كما جاء في كتب اللغة العربية منقولاً عن اخبار الناس في العصور الغابرة . والثاني ان هذه المواد تتكون من نعل الحواض بالسولوس وهذا السولوس كثير في الحبوب وقليل في العنب فالاشربة التي تصنع من الحبوب او من البيرتو الافرنجي المستخرج من الحبوب ينتظر ان تكون هذه المواد أكثر فيها منها في الاشربة المستخرجة من العنب . وهذه الحقيقة حربية بالاعتبار من باب تجاري لدى صانعي الاشربة البنانية فانهم اذا اثبتوا بالامتحان الكيماوي ان اشربتهم خالية من الفرغال او هو اقل فيها منه في غيرها من الاشربة كان ذلك مروجا لتجارهم كما هو مقال لضرر الذين يشربون

معرض باريس العام

سنة ١٩٠٠

الباب الثاني عشر في تزيين المباني وتأثيثها وتجهه عشرة فصول مختلفة الاول في تزيين المباني بالخشب والحجر والخزف والمرمر والحديد والرصاص والنحاس . والثاني في تزيينها بالزجاج الملون . والثالث في تبطين جدرانها بالورق المنقوش . والرابع في تزيينها بالصور والنقوش بالفسيفساء ونحوها . والخامس والسادس في البسط والستائر والكراسي والمقاعد والموائد والخزائن وما جرى هذا الجرى . والسابع في الخزف على انواعه والثامن في الزجاج على انواعه والتاسع في طرق التدفئة والتهوية والالتها . والعاشر في طرق الانارة والالتها ما عدا الكهربائية وهذه الاشياء معروضة في مباني الاتقاليد ولترنا النصيب الاكبر منها كما لها النصيب الاكبر من المعرض كله وقد ابدعت في هذا الباب كما ابدعت في غيره لان الزخرفة والزينة مما امتاز به الفرنسيون عن غيرهم وملأت بمعارضها ومعروضات الباب الخامس عشر الا في ذكره النصف الايسر من المباني التي شيدت في ساحة الاتقاليد لهذا الغرض وجانباً من النصف الايمن ولم تعرض آلات التدفئة والتهوية هنا بل في بناء خاص على ضفة السين كما سيحيى من عانى حرفة التدريس في المدارس العالية ورأى ابناء الاغنياء يجلسون مع ابناء

الفقراء على مقعد واحد ويدرسون في كتاب واحد وقد يمتاز ابن الفقير على ابن الغني باعتدال القامة وجمال الطامة وصحة الجسم وتوقد الذهن وسرعة الخاطر ثم دخل بيتي ابويهما ورأى كوخ القبر بيتاً صغيراً حقيراً من الطوب او الحجر الساذج ليس فيه من الاثاث غير حصير وفراش ودثار وقليل من مواعين الاكل والشرب . ثم رأى قصر الغني بغرفه ومقاصيرهم من الحجر النجيت والرخام والمرمر فيه التماثيل الناطقة والصور الفاخرة والاثاث والرياش من الحرير والديباج والبسط والسائر والكراسي والموائد وآنية الطعام والشراب من الفضة والذهب والصيني والبلور وخزائن الثياب واسفاط الحلي وقف مدهوشاً من مقدرة المال على التفريق بين الناس في هذه الاعراض الغاية وعجزه عن التفريق بينهم في مقومات الانسان في الجسم والعقل والاعتدال والذكاء

وقد طالما وقفنا هذا الموقف من حين ادركنا من التمييز بين الناس وكنا نزيد دهشة اذا دخلنا قصور الملوك وبعض الاغنياء في هذا القطر والديار الاوربية ورأينا ما فيها من دلائل الترف والامراف ولكننا لم نقف على طرفي التقيض كما وقفنا في معرض باريس لما دخلنا هذا القسم بعد ان مررنا على اكواخ اهالي مدغسكو وخصاص اهالي افريقية . ولوزار الارض احد سكان المريخ او الزهرة ورأى اكواخ اهالي مدغسكو او السنيغال وهي لا تكاد تفرق عن المظالم التي بينها نوع من قروود افريقية او العشاش التي تبنيها الطيور ورأى ما فيها من الامتعة القليلة الساذجة ثم دخل المباني التي عرضت فيها فصول هذا الباب وقالت له ان المكتفين بتلك الامتعة والذين لا تكفيهم هذه اخوان من نوع واحد ولا يمتاز احد من الآخر بشيء من مقومات النوع لظنك تهزأ به وثبت له الحال

ولقد جلت في مباني الاتقاليد مراراً وكنت انتقل من القسم الفرنسي الى اقسام سائر الدول العارضات هناك فتمضي الساعة بعد الساعة وانا اقلب طرفي في بدائع الصناعة ومغلاة الصناع في اتقان مصنوعاتهم ومباراتهم بعضهم بعضاً في هذا السبيل حتى كأنهم خيل رهان . وارى ان هذه المناظرة لا تقتصر على الصناع انفسهم الذين قد يغرمون بصناعاتهم حتى لا يذخروا وسعاً ولا تعباً في سبيل اتقانها بل يتناول اصحاب المعامل الذين غرضهم الاكبر توفير المكاسب لانه يظهر مما عرضوه انهم هم ايضاً يغرمون بانقان الصناعة ولهم في ابلاغها اسمى الدرجات ولع يكاد يخرجهم عن حد الاتصاف التجاري . كنت افعل ذلك ثم اقول في نفسي ان كل ما هو معروض هنا من اصوله في بلادنا الزجاج والخزف المدهون والمنقوش والفسيساسه والبسط والسائر والكراسي والموائد والموشى والمطرز والمطعم والمرصع ولم يزل لبعض امم المشرق

السبق في كثير من ذلك حتى ان الاوربيين انفسهم يدخلون قصور ملوك المشرق فيعترفون ان ليس في بلادهم مثاها نغامة ونقشاً وزخرفة فعلى م قصر الشرفيون في ميدان المناظرة وعلى م لا تفيض مصنوعاتهم على الدنيا كما فاضت مصنوعات الاوربيين ثم اعود الى الفارق الكبير بيننا وبينهم وهو ان ولاة امورهم اعوان لهم وولاة امورنا عوانق لنا

وترى بين هذه المعروضات ما هو ثمين جداً لما يقتضي عمله من الوقت والمثقة وبعضها صار اخص من سقط المتاع . سمنا صحيفة فيها صورة جميلة فليل لنا انها تساوي التي فرك لانها مصنوعة بقلم مصور ماهر وسمنا كأساً عليها صورة اخرى فليل لنا انها تساوي مئة وخمسين جنيتها لانها وحيدة . وهذه الكاس وتلك الصحيفة ليستا من اثنان ما صنعه الصانع بل ان من المصنوعات الخرفية ما تساوي القطعة منه آلافاً من الجنيهات لندرتها او لان صانعها مات فيراد الاحتفاظ بها انراً لها وانموذاً يحذيه الصانع . وبسط غوبلين التي تصنع الآن وليس لها قيمة تاريخية بل قيمتها في ما يقتضيه عملها من الوقت والمثقة يساوي المتر المربع منها اربعين جنيتها او اكثر . لان الخيوط التي تصنع منها بلونة باكثر من الف واربع مئة لون مختلف وعلى الصانع ان يرن عينيه على الفرق بينها ولا يتم له تمرين عينيه وبديه على تمييز الالوان واختيارها في اقل من خمس عشرة سنة . وهو مما كان بارعاً لا يصنع في السنة اكثر من ثمانية امتار من ربة تباع بثلاثمئة وخمسين جنيتها . لكن المصنوعات الرخيصة الثمن كثيرة جداً وكلاهما اخترعت له الآلات تصنع الكثير منه بسرعة فلا يضطر مهرة الصانع الا الى عناء قليل في تهذيبه

هذا ولعد الى التفصيل بعد هذا الاجمال فنقول ان فرنسا قد ابدعت في ما عرضته في القسم الاول من رسوم المباني واشكال السقوف والابواب والشبايك ونقوشات الرخام والحص ورب الورق والتماثيل الكثيرة الداخلة في هذا الباب وابواب الحديد والنحاس والماور والتصوير على الحجر والخشب والمعدن وعمل الصور من قطع السيفساء والمينا وبناء القباب والاقبية وادخال الاجر المدهون في ذلك بعد نقشه بالوان جميلة يتألف منها صور شتى بين ازهار واطيار وحيوانات وما اشبه مما يطول شرحه

وقس على ذلك الزجاج الملون الذي يوضع في الكوى فتكون منه صور باهية الالوان متناسبة الاجزاء كأنها صورت بقلم امهر المصورين وما هي الا قطع مفصلة مختلفة الالوان ضم بعضها الى بعض فصارت منها تلك الصور . ومن ابداع ما شاهدناه من هذا القبيل رسوم تمثل الاربعة الانيار التي كانت في الفردوس على ما في سفر التكوين رسمها المسيو لا مبر لتوضع في كنيسة اليونان بباريس ترى فيها الغزلان والظباء والايائل والارايي واردة الماء وهو يتدفق امامها

واللاوربيين ولع شديد بوضع الزجاج الملون في كوى، كئناسهم بادية فيه صور القديسين
والملائكة بالوان زاهية جداً من الاحمر الباتوني الى الازرق اللازوردي والاصفر الزعفراني
وما بينها من الالوان المتزجة. ولصناعتهم مهارة فائقة في ذلك لا نظن ان احداً من صنّاع
المشرق يباريهم فيها الآن او حاول السير في هذا المضمار في العصور الغابرة. وقد رأينا بين
آثار العرب كثيراً من الزجاج الملون والمعرق ولكننا لم نر زجاجاً مصنوعاً من قطع مختلفة
الالوان تتألف منها صور محكمة

وبما هو شائع عند الاوربيين ولم نزله اثرًا في بلدان المشرق قبلما اخذناه عنهم تبطين
جدران البيوت بالورق المنقوش. وقد اتقوا صناعة هذا الورق وعرض منه الفرنسيون
والانكليز وغيرهم اشكالاً بديمة جداً تراها تفجسها قوتشاً بالزيت على الجدران او النجفة من
الحريز والكتان موشاة منقوشة مطرزة كابدع ما صنعه النساجون كأن المراد بها ان لا يدري
رائبها انها ورق. ولا ندري ما نوع الادهان التي طبعوها بها ولكن يغلب على الظن ان البعض
منها سام فيه الزرنيخ ينتشر منه في هواء الغرف ويضرّ ساكنيها ولو قليلاً لكن لها كفاها فائدة
لا تنكر في تربية الذوق على محبة الجمال والارتياح اليه فان اكواخ النقرهات تامل بها تصور
الملوك من حيث زخرفة الجدران وتزيينها بالصور الجميلة نيشاً اولادهم على حب الجمال والتفوق
من كل ما هو فيج سجع ولا تنكر فائدة ذلك في تربية الادم وارثائها

ومن هذا القبيل تزيين البيوت بالصور والنقوش والفسيفساء وقد كان ذلك كله شائعاً
عند المصريين والاشوريين لكن يظهر من آثارهم انهم كانوا يقتصرون على تزيين هياكل الآلهة
وقصور الملوك ومدافن الاموات واما بيوت جمهور الناس فكانت اكواخاً عاطلة من كل زينة.
وتقدّم عليهم اليونان والرومان كما يظهر من البيوت التي كشفت في خرائب ميباي وهركولانيوم
فان التجار والعلماء ورجال السياسة كانوا يزينون بيوتهم باجمل النقوش والزخارف كما يزينون
هياكلهم. وبما هذا الخلق في الاوربيين الذين جاؤوا على اثرهم ولو كانوا من برايرة الشمال.
والظاهر ان الميل الى التمثيل والتزويق قدم فيهم من حين كانوا هجماً يعيشون بالصيد والقنص
كما يظهر من رسمهم صور الحيوانات التي كانوا يصيدونها على عظامها فلما تدهمت اخلاقهم
وتهدّبت عقولهم فاتوا ام الارض في هذا المضمار

اما البسط والسائر والكراسي والخزائن وما جرى هذا الجرى فحدث عنها ولا حرج. وقد
نصب النساجون انواعهم في المعرض ينسجون بها البسط العجمية ومطارف الخبز والديباج والقطيفة
والاستبرق. وفرشت غرف كثيرة فرشاً فاخراً لا تتلى العين من النظر اليه. وتنان الصناعات

في الخشب والمعدن فثقلوا الحديد الحسان والضواري والكواسر وسائر ضرور الحيوان والازهار
والانهار والادواح والرياحين والحوادث التاريخية والافانيس الومية حتى لم اتمالك عند رؤيتها
من انشاد ابيات من رائية ابن حمديس الصقلي التي وصف بها دار المنصور بن اعلى حيث قال
وضراغم سكنت عربن رئاسة تركت خريم الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النصار جسمها واذاب في افواها البلورا
اسد كان سكوتها مشرك في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما اقع على ادبارها اشورا
وبديعة الثمرات تعبر نحوها عيناى بجر عجائب مسجورا
شجرية ذهبية نزعتم الى سحر يوتر في النهى نائيرا
قد صوجت اغصانها فكأنها قبضت بين من القضاء طورا
من كل واقعة ترى منقارها ماء كلسال اللجين نميرا
وتريك في الصهرج موقع قطرها فوق الزبرجد لؤلؤها مشورا
ومصغ الابواب تبراً نظروا بالنقش فوق شكوله تنظيرا
واذا نظرت الى غرائب سقفه ابصرت روضاً في السماء نظيرا
وضعت به صناعها اقلامها فارتك كل طريدة تصويرا

من امثال العامة في القطر السوري الدالة على احترام صناعة الفخار وازدهارهم اصحابها قولهم
"مثل الفواخرة لا دنيا ولا آخرة" لكن هذه الصناعة من اقدم الصنائع التي اتقنها الناس وقد بقي
اهالي المشرق الاقصى متأثرين بانقائها قرونًا كثيرة وبذل اهالي اوربا النفس والنفيس في
اخذها عنهم او تقليدهم بها كما يعلم من سيرة بالسي وبتغروودجود الخرافين الثلاثة العظيم
الذين ورد تاريخهم في كتاب سر النجاح . وقد ارتقت على يد خلفائهم وبلغت في هذا العصر
مبلغاً لم يحلم به اهل العصور الغابرة كما يعلم كل من رأى انواع الخزف الفرنسي والانكليزي
والالمانى والايطالى المعروضة في هذا المعرض ورأى المزاهر والكؤوس والصحاف التي صنعت
في معمل سترنبرنسا وما عليها من الصور والنقوش

ومن غريب امر الصناع انهم يعدلون عن الطريق المطروق من وقت الى آخر لكي يزدوا
رغبة الناس في شيء جديد يستبطنونه لهم ولو عثروا عليه اتفاقاً او كان من الخطأ في صناعتهم
لكي لا نسأم النفوس من الاستمرار على شيء واحد . ومما عثروا عليه حديثاً وكانوا يعدونه خطأً
فراوا فيه سبيلاً جديداً للنجاح تبلور الدهان ببلورات مشعة كالنجوم . والظاهر ان خرافتي

الدمارك هم اول من رأى الاحتفاظ بالآنية الخزفية التي يتبلور دهانها حاسبين ان الناس
سشموا ما دهانها منتظم . فكان كما ظنوا . وللحال تذكر غيرهم من الخزافين ان تبلور الدهان كان
يعرض لهم احيانا فيكسرون الآنية التي عرض لها حاسبين انه خطأ وقع فيها فصاروا ينتهبون
الى هذا الخطأ ويجاولون تكريره بالصناعة . وراجت مصنوعاتهم التي من هذا القبيل وتفتنوا فيها
على اساليب شتى ومنجوا البلورات بالنقط البراقة التي تكون في بعض انواع الخزف المدهون فكان
من مزيجها اشكال جميلة ترى الخزف يتألق بها كأنه مرصع بما لا يحصى من الحجارة الكريمة
ومن هذا القبيل تقليد الزجاج القديم الذي يحل النور فتعكس عنه كالوان عنق الحمام
او عرق اللؤلؤ فقد اكتشف سر هذه الصناعة رجل في انكلترا وآخر في فرنسا وآخر في ايطاليا
ثم اقتدى بهم غيرهم وكثرت مصنوعاتهم ولما انها معدني لكن منظرها غير جميل وقلدوا الزجاج
القديم الذي في قبور الفيتيقين وقد اذابت صفاله الاملاح التي في التراب فصار يحل النور
كابدع ما يكون قلدوه حتى يعسر الفرق بين القديم والمصنوع على مثاله

وكما تفتنوا في الخزف المدهون والصيني على انواعه تفتنوا في الاجر المدهون والملون وسموا
به صوراً جميلة كالنيسفاء جارين مجرى الفرس وعرب اسبانيا في صناعة القيثاني . واليابان
جانب كبير من معروضات هذا الباب كما لها في سائر الابواب

اما الزجاج فاغرب ما عرض منه الالواح الكبيرة التي يزيد طول اللوح منها على ثمانية
امتار وعرضه على اربعة امتار والقطع المكعبة التي تستعمل للبناء والرصف بدل الحجارة والبلاط .
وقد اقيم بناء كبير بجانب برج ايفل من الزجاج لا غير . اما اشكال الاقداح والازهار والمصابيح
والاباريق والوانها وتوشها فما يفوق الوصف ولولم يظهر ان فيها اختراعاً جديداً . وقد دخلت
معامل سبك الزجاج ورأيت الصناع يصهرونه وينفخونه ويشكلونه ويلونونه ويحرقونه وينقشونه
ويكتيون عليه اسماء المشترين وهو في يدهم ألين من الخزف في يد الفخاري . صناعة قديمة
اكتشفها ابنا المشرق منذ الوف من الاعوام وانقوها حتى صاروا يصنعون عيوناً لا تفرق بينها
وبين العيون الطبيعية ثم انحطت في يد ابنائهم حتى لم يبق منها الا عمل الاساور والدمالج
فناد ابنا المغرب عاملها وصنعوا من الزجاج خيوطاً تسجح وحجارة تبنى ونحتوا منه آلات يرون
بها اصفر احياء الارض وابعد كواكب السماء

وبلي هذا الفصل فصل التدفئة والتهوية والآلة وادواته معروضة وحدها في بناء كبير على
ضفة الدين الجنوبية وهو اشبه بمخزن تجاري منه بمعرض صناعي وقد تبارت المعامل الصناعية
في عرض معروضاتها وعرض كل منها اقتناع الناظرين بفضل مصنوعاتهما حتى يتاعوا منها ما

يحتاجون اليه لان وسائل التدفئة والتهوية من اهم ما يطلبه الناس في البلدان الباردة . وتبتدى المعارضات بما يستعمل لتدفئة البيوت بالنجار او بالماء الساخن او بها معا ثم بوسائل التهوية الطبيعية والصناعية . لان تدفئة البيوت بالنار المكشوفة فيها تعرضها لتساقط الهواء فاذا كانت المواقد متصلة بانبوب كبير يمتد من فوق النار الى اعلى سطح البيت سار الهواء البارد من الغرفة ومرت فوق النار وسعد في هذا الانبوب فيصلح الموقد لتدفئة الغرفة وتجديد هوائها في وقت واحد . ولم يقف الاوربيون والاميركيون عند هذا الحد بل دفاوا بيوتهم بالهواء الساخن او الماء الساخن او النجار الساخن يجرونها في انابيب تمر حول الجدران حتي يقال ان بيوت بطرسبرج في اقصى الشمال ادفا في الشتاء من بيوت القاهرة

واذا قلنا مواقد النار وانابيب البخار فاول ما يخطر على البال ادوات من الحديد او الخزف سوداء قبيحة المنظر لكن الصناع لا يتركون شيئاً قبيحاً وقد تفتنوا في زخرفة كل وسائل التدفئة حتى صارت من ادوات الزينة في البيوت بل من اجمل ادوات الزينة فيها . واطهروا مهارشهم في ذلك بما عرضوه في هذا الباب من مواقد الحديد والنحاس والتكلم والمرمر والحجر والخزف وما فيها من النقش البديع

وادخلوا مع وسائل التدفئة وسائل الطبخ من المواقد والافران على انواعها ولاسيما ما استنبط منها حديثاً مما ينضج فيه الطعام ويجرد طعمه ويسهل هضمه ولا يتلف شيء منه . ومن رأى فقراء الفلاحين يضعون قدرهم على الاثافي او عرب البادية يشورون الجزور حينئذاً وقد مرت على هؤلاء واولئك ألوف من الاعوام وهم على منهاج واحد من غير تغيير وعلم ان اهالي اوربا كانوا مثلهم او اخط منهم منذ اقل من الف عام ثم ارتقوا هذا الارتقاء العظيم لم يسعد الا ان يقف مدهوشاً ويسأل عن الاسباب التي رفقتهم واورقتنا او اخرتنا

ومن اول اسباب الارتقاء والتجراح في الاعمال استنباط وسائل القياس فترى الاوربيين والاميركيين يفعلون كل شيء على قدر وقياس فيقيسون الحرارة والرطوبة والضغط والقوة ويتحكمون في كل شيء . وترى هذه المقاييس كثيرة بين هذه المعارضات كمقاييس الحرارة والرطوبة وضغط الهواء وضغط النجار واساليب التحكم فيها حتى لا تقلب عليهم قوة من قوى الطبيعة بل تخضع كلها لا مرمم وتجري على حسب مشيئتهم وهذا من اسرار نجاحهم في كل اعالم واذا كان التفنن في آنية الزجاج والخزف والمعدن قديماً فالتفنن في طرق الانارة حديث جداً وقد بقي الناس الرقا من الاعوام يستصحبون بزيت الزيتون وشمع النحل وقصروا همهم وتفننهم على مادة المصابيح وشكلها فصنعوها من الخزف والزجاج والنحاس والفضة والذهب ونصروا

في اشكالها من الصدفة البسيطة الى التائيل البديعة التي سبها امهر صناعهم . لكن طرق
الانارة بقيت على حالها الى ان اتفق لبعضهم ان وضع انبوتاً من الزجاج فوق مصباح مشعل
فراى نوره يزيد اشراقاً فاتبه اخوه الى ذلك وكان يبحث عن طريقة لاصلاح المصابيح ومن ثم
صارت توضع المداخن فوق المصابيح لكي يزيد الهواء المار على لهب المصباح ويتم احتراق الزيت
فيسطع نوره . ثم وجد الغاز وزيت البترول وصنعت المصابيح الكهربية وفتائل اور التي تحمو
الى درجة البياض وتبهر بنور ساطع يزري بالنور الكهربي . وآخر الكل استنبطت مصابيح
السبيرتو والاسيتلين وارسل البترول الى المصابيح بانابيب دقيقة . وتاريخ اكثر هذه المصابيح
معروف عند قراء المقتطف والكول منهم يذكرون الايام التي كانوا يستعملون فيها بمصابيح
زيت الزيتون . فكل هذا الارتفاع العظيم في اساليب الاستصباح حدث منذ اربعين عاماً الى
الآن واكثره حدث في الخمسة عشر عاماً الاخيرة . وهذه الاساليب معروضة كلها في هذا
الباب ما عدا اساليب الانارة بالكهربائية فانها معروضة في باب سابق كما تقدم وهي الوحيدة
في خضوعها التام لارادة الانسان على ما لها من الحول والطول ولذلك انبر المعرض كله بها
واستخدمت لاطهار بهجته وزينه

الباب الثالث عشر في الغزل والنسج والثياب وفصوله احد عشر فصلاً معروضة في شان
دو مارس الاول في الغزل وفنل الحبال والثاني في النسج والثالث في قصر المنسوجات وصنعتها
وظبيها وتهذيبها . والرابع في التفصيل والخياطة . والخامس في خيوط القطن ومنسوجاته بنوع
خاص . والسادس في خيوط الكتان والقنب والرامي والصبر ومنسوجاتها والحبال التي تصنع
منها . والسابع في خيوط الصوف ومنسوجاته . والثامن في الحرير ومنسوجاته . والتاسع في الخرج
والتطريز والزركشة . والعاشر في خياطة الثياب للرجال والنساء والاولاد . والحادي عشر في
ما يدخل مع الثياب كالجوارب والاحزمة والبرانيط والمشدات والمظلات وما اشبه
ولا يخفى ان الغزل والنسج وخياطة الثياب وتوشيتها وتطريزها من اقدم الصنائع التي عمل
بها الانسان وقد اتقنها القدماء من عهد المصريين والاشوريين والفينيقيين والعبانيين ولا تزال
منسوجاتهم في التمجيد المصري ومتاحف اوربا شاهدة لهم بانهم بلغوا في هذه الصنائع شأواً لم
تفقههم فيه اوربا الا منذ مئة عام . لكن اهالي المشرق وقفوا عند الحد الذي بلغه اسلافهم او
تأخروا عنه واهالي اوربا ساروا في مئة عام اكثر مما سارت ام المشرق في الف عام ساروا سيراً
يدهش كل من ينظر اليه اذا ادرك ما يرى بعينيه وعلم تاريخ كل آلة من الآلات التي استنبطوها

وما عانى مستنبتها من المثقة في استنباطها او قرأ على الاقل المختص المذكور في سر النجاح عنها
 وفصول هذا الباب زينة المعرض وواسطة عقده واليه تدير اقدام النساء بتوع خاص
 حتى لقد يتعدّر على المرء المرور حيث عُرِضَت الثياب والازياء. وقد شاهدت هذه المعروضات
 بعد ما رأيت قصور الدول ومعرض مدينة باريس وقصر الازياء وفيها كلها ما يعجز القلم عن
 وصفه من الحلل الفاخرة ولم أكن احسب ان قد ترك الاول الآخر شيئاً فلما رأيت ما هو معروض
 هنا قلت في نفسي حقاً ان الدافع الاول لبس الثياب هو الزينة والامتيان لا الدفعة ولا التستر
 كما اوضحت ذلك تبلياً في مقالة موضوعها من الحللى الى الحلل. فان هذه الثياب التي تراها هذه
 الموشيات والمطرزات هذه الانسجة التي تقف على اذيالها لصفاتها او تطير في الهواء لخصبها هذه
 الخيوط التي يبدو منها جمال الصدر والخصر والعنق والمنكبين وكل منها يمتاز عن الآخر ولو
 عدت بالثبات والالوف لا يمكن ان يكون الغرض منها ستر عري او دفع برذ. وقد زادها
 الصانع جمالاً بما صنعوه لها من تماثيل الشمع الاسيلة الحدود التجلاء العيون وما على رؤوسها
 من غداثر الشعر المعقوص على اساليب شتى حتى كأن الجمال كله جُمع في تلك الحزائن
 ولم يقتصر العارضون على عرض حلل النساء بل عرضوا ايضاً ثياب الاولاد والرجال
 والحلل الملكية والسكرية على اختلاف انواعها واشكالها. وهذه ايضاً لا تخلو من الزينة والزخرفة
 ولا سيما حلال الملوك والاساقفة والقواد والقسوس لاغراض لا تخفى على البصير وهي تفوق في
 زخرفتها كل ما تلبسه اشد الغواني ترفاً

ويقلب على ظني ان كل من زار المعرض من سكان القطر المصري امعن نظره في آلات
 الغزل والنسج التي فيه كما احدث نظري فيها ولا سيما لان جانباً كبيراً من قطنها وصوفها
 وحريرها وكتانها ترد اليها من القطر المصري والقطار الشامي فيود ابناه هذين القطرين ان يعلموا
 ماذا يفعل بقطنهم وصوفهم وحريرهم وكتانهم حتى صارت منسوجات اوربا ارخص من
 منسوجاتنا على غلاء الاجور فيها ورخصها في بلادنا. وما رأيت مديرى معامل الغزل والنسج انني
 ارغب في الوقوف على دقائق صناعتهم لم يدخروا وسماً في اطلاعي على كل شيء فاروني كيف
 ينظف القطن ويندف لا بالقوس والوتر بل باساطين ذات اسنان كريس القنفذ تنسل خيوطه
 تسلاً ثم يجمع النسل عنها فتائل الخن من الابهام وتند هذه الفتائل وتنتل فتصير خيوطاً دقيقة
 ثم تلف على الوشائع وثنى وثنت. وآلات الغزل مختلفة الانواع والاشكال وكل آلة تعمل
 اعمالها بما لا يزيد عليه من الدقة حتى لو كان لما عقول ثاب ما احكمت اعمالها اكثر مما تحكمها
 الآن بل هي في حالتها الحاضرة اقدر على الدقة والاحكام من كل صانع ماهر لان الصانع

يخبر ويميل ونسي ويخطئ واما هي فلا يعثورها شيء من ذلك
وآلات النسيج لا تقصر في دقتها واحكامها عن آلات الغزل ولا سيما اذا نُسج بها نسج
معرق او معلم او محمل او مخرم

والذي يرى خيطاً ايضاً بسيطاً ملتوقاً على بكرة او مندبلاً ملوناً بنسجه او بصغره لا يخطر
له ان ذاك الخيط وهذا المتديل مرأى على أكثر من ثلاثين آلة مختلفة قبلما خرجا من ايدي
الصانع ودخلا في ايدي التجار . وهذه آلات معروضة كلها في هذا المعرض فقد رأيت بين
معروضات اخوان بلات وشركائهم نحواربين آلة مختلفة بعضها لملح القطن وبعضها لتفتيح
وتنظيفه وبعضها لتدقّه وبعضها لتزله وبعضها لتقلده وبعضها لتسجد ويربما عدت الى وصفها في
باب الصناعة في فرصة أخرى . وعلمت من مدير هذا العمل ان نقل هذه الآلات من البلاد
الانكليزية الى البلاد الروسية ووضعها في اماكنها اقتضى له من النفقة قدر ثمنها فاذا ابتعنا
آلات معمّل للغزل والنسيج بعشرين الف جنيه اقتضى ان ننفق عليها عشرين الفاً اخرى حتى
نتقل الى بلادنا وتركب في اماكنها وتدار فيها قبلما تعمل عملاً منه ربح وذلك لتلايد اجرة
الصانع الذين يؤتي بهم تركيبها وادارتها . وذا كرتة ملياً في ربح معامل الغزل والنسيج فاراني
مقاييس وجداول يعلم منها مقدار ما يغزل وينسج بالآلات اذا عرف ثمنها . وبعد حساب
طويل أكد لي ان الربح في القطر المصري لا يقل عن عشرة في المئة ولو اضيف الى رأس المال
نصفه اسماً للتوسمين لكن هذا الربح لا يتحقق في السنة الاولى التي يدار فيها العمل بل في
السنة الثانية وما بعدها

ومما يستوقف النظر بنوع خاص النوال النسج المعرق والملون والمزركش فانها تتسج الواتان
كثيرة من وشائع مختلفة . وفي النول سواعد ترمي الوشيمة المطلوبة من نفسها تخارها من بين
وشائع عديدة لانها تكون في كوى بعضها فوق بعض متصلة بالآلة ترفعها وتخفضها حتى تكون
الوشيمة المطلوبة منها امام فتحة السدى فتضربها ذراع مرنة قائمة وزاها ضربات متوالية حسب
المطلوب وترتفع الكوى حينئذ او تنخفض حتى يكون امام فتحة السدى الوشيمة الاخرى التي
باتي لونها بعد لون الاول وهلم جرا . وخيوط السدى ترتفع وتنخفض وتجمع وتنفرد تبعاً
لقطع من الورق المقوى فيها خروب حسب النقش المراد توشية النسيج به وهذه القطع توضع
على ابر كاسنان المشط فتضغط تحت ما لا خرق فيه وتبقى على حالها تحت الحرق وتصل حركاتها
بخيوط السدى ترفعها او تخفضها حسب المراد

واغرب من هذا الاسلوب اسلوب الذراع وهو ذراع طويلة لها اصبع يدل بها على رسم

مرسوم امام الحائك فليس عليه الا ان يمك هذه الذراع يده ويدل باصبعها على نقط مختلفة في الرسم فتقدم او تتأخر او تعلو او تسفل حسب موقع تلك النقط في الرسم ويحرك طرفها الآخر وهو متصل بالسدى فيحركها وينسج منها شكلاً مثل الشكل الذي امامه. وترى الحائكة رجلاً ونساءً دُئبين على اعالمهم ينسجون المقاطع الكبيرة او المتاديل الصغيرة يرسمون فيها صور المعرض او صور الملوك والملكات او صور القديسين والقديسات امام عين الرائي . وهاذا اكتب هذه السطور وعيني تقع في فترات الكتابة على متاديل من الحرير الملون سُجيت امامي في نول فرانسوي وعليها صورة قصر الكهربائية من قصر شان ده مارس وصورة قصر الروس تقولا الثاني ورئيس الجمهورية الفرنسية المسبولوبه وعلم الروس وعليه النسر الروسي وعلم الفرنسيين وعليه الحرفان R.F. واشعة النور الكهربائي متألقة فوق القصر كأنها الشمس في بهائها ومياه الشلالات والفساقي متصبية امامه يحيط بها اكليل من الغار والسديان وقد كتب فوقها بحروف سوداء وبيضاء المجد للقرن العشرين وتحتها تذكارات المعرض قصر الكهربائية. وارض المتديل من الاحمر او الاخضر او البرتقالي او الرمادي والنقش عليه من لونه ومن الابيض والاسود

وما يستوقف النظر ايضاً انوال نسج النول الخرم المعرق الذي تصنع منه الستائر الكبيرة. يقف الرائي امامها ساعة بعد ساعة يرقب حركاتها وسكناتها فبراهاتجيك وتجبك وتنك وتنفك وتنسج الاوراق والازهار والخطوط والعروق والدوائر والمقنطرات والحائك لا يد إليها يداً الا اذا انقطع منها خيط فيوصله . ومن رأى فتاة من بنات هذا العصر تقيم ساعة بعد اخرى على حبك زهرة واحدة من زهر التن او الدانتلا ثم رأى مئات من مثل هذه الازهار تجبك في دقيقة من الزمان ارتفعت في عيني قدرة العقل الذي صنع آلة امير من يد الانسان . لكن المصنوعات اليدوية لم تنفك شيئاً من رونقها ولا خسرت من قيمتها ولا يزال الاوريون يغالون بها كما كانوا يغالون في العصور الغابرة وقد عرض امراؤهم واغنيائهم قطعاً كثيرة منها مما حبكته ايدي النساء وباع المترمنة بما يزيد على وزنه ذهباً

ومنه انوال نسج الجوارب والكفوف والقمصان وما اشبه مما يجبك حبكاً . وهذه ايضاً قد قامت مقام الحبك بالصناعات . ويشاهد منها في المعرض ما يجبك التميمص من لوزين او ثلاثة او اكثر ويصنع الجوزب في بض دقائق

ومعلوم ان القصد من عرض هذه الآلات ترغيب الطلاب في ابياعها من معاملها وقد بيع كثير منها مواراً ومن ذلك آلة سويسرية للغزل تدور بسرعة البرق حتى يظن الناظر اليها

ان معازلها ثابتة لسرعة حركتها وقد اشترتها حكومة الروس لمدارسها الصناعية ولما شيعت من الوقوف امام الآلات الفرنسية والانكليزية والالمانية لان النفس تشيع من الفوائد كما تشيع المعدة من الطعام قيل لي انك لم تر معروضات اليابان في هذا الباب كما رأيتها في غيره من الابواب فهولت اليها وانا احسب انني لا ارى فيها غير ما اعتدنا رؤيته في هذه العاصمة من منسوجات اليابانيين وموشياتهم فلما وقع نظري عليها واجلت طرفي فيها اكثرت امر هذه الامة التي جارت الاوربيين في كل شيء فترى بين معروضاتها البرانيط من كل الاشكال والانواع والانسجاف المطرزة وعليها صور الاطيار والازهار بالوانها الطبيعية تحسبها بالآلة منها كأنها موضوعة امامها وضعا لا منسوجة فيها نسجا وصورا كثيرا وفي رباط ابن الخياط تعلق في البيوت بدل صور الزيت. في واخدة منها صورة امرأة مكسال والسبيجة في يدها وفي اخرى صور بط وادز والريش منه لامع كأنه خرج من الماء وانعكس عنه نور الشمس. وفي اخرى صورة ديك ودجاجة رفقاء وفرانخها معها. وفي اخرى صورة شجرة مزهرة والطيور تحتها. وفي اخرى صورة صخر في البحر وقف عليه نسر كأنه ملك على عرشه. وفي اخرى صور كلاب صيد جارية تكاد تنبثق اظلالها. ولا تسلم عما هناك من المراوح والقمصان والمظلات والقش المضفور وما اشبه مما يدخل في هذا الباب

وهناك ايضا كثير من منسوجات الحرير والمخمل المعرقة والموشاة على ضرب من شتى وهي تشهد لراسمها بالمهارة في فن الرسم واخيار الالوان كما تشهد لصناعي انوالها بلوغ الحد في الفن والانتان. وسواء كانت هذه الانوال يابانية او اوربية وسواء كان الراسمون والحاكمون من الوطنيين او من الاجانب فصناعة النسيج المثمن دخلت ربوع ياباني ودرجت قدامها فيها وصار اليابانيون يبارون الفرنسيين والانكليز والالمانيين في اتقان منسوجاتهم ولا عجب اذا رآيتهم يبارونهم في كثرتها ورخصها واذا اقتدى بهم جيرانهم الصينيون والكوريون والمنود وبنق من العثمانيين في ساقه كل اهالي المشرق بعد ان كان اجدادنا في طليعة امم الارض

الباب الرابع عشر في الصناعات الكيماوية وفيه خمسة فصول الاولى في الكيماويات الصناعية والصيدلية والثاني في الوراقة والثالث في الديباغة والرابع في استخراج الطيوب والخامس في التبغ والتقاب (عيدان النصفور)

وهذا الباب مناسب للباب السابق ومعرض الى جانبه ولا تضره رائحة التبغ فيه لان رائحة الطيوب تغلب عليها على حد ما قاله احد الظرفاء

ضرر المطابع

لا وزد بلا شك ولا نفع الا ومعه شيء من الضر. ومن شأن المزار انها تزيد وتجمع المنافع كما ينفع الشوك والقراص في الارض المحروثة المعدة للزرع. يعلم ذلك اهل الزراعة فيقربون النبات الذي يزرعونه بعضه من بعض حتى لا يبق مجال للاعشاب الضارة واذا نمت رغماً عنهم واظبوا على استئصالها لئلا تقوى وتختق زرعهم. وعلى الذين يهتمون بمصالح العباد وتوفير المنافع لهم ودفع المضار عنهم ان يفعلوا مثل ذلك بما ينمو بين الناس من الشرور والمضار حيث ينتظر نمو الخيرات والمنافع. ويصدق هذا بنوع خاص علي المطابع ونشر الكتب فان الناس يؤلفون من الكتب النافع والضرار والمصلح والمفسد والسمين والفت فلما كان نشر الكتب موقوفاً على اقلام الكتاب كان انتشار المنافع قليلاً وكذلك انتشار المضار. اما وقد كثرت المطابع وسهل طبع الكتب ونشرها فصار انتشار الكتب الضارة ميوراً لاسيما وان جمهور العامة اميل الى السخافة والاهام منهم الى العلم والحقائق

يعتينا عن الامهات في هذا الموضوع ما اظهره احد الاديك بالاحصاء من انه لا يطبع كتاب علي مفيد في هذا القطر حتى يطبع فيه عشرون رواية واكثرها مما لا فائدة من مطالعتها وبعضها يفسد الاذواق والاخلاق. وهذا الداء منتشر في البلدان الاوربية اكثر مما هو منتشر عندنا لكن الاوربيين لم يفعلوا عنده بل احتاطوا له وتراموا يعالجونه على اساليب شتى فعندهم الانتقاد المحص في الجرائد والمجلات وعندهم الجمعيات العلمية والادبية حيث تداع العلوم والآداب ولا يخلو بلد من بلدانهم من مدارس يتهذب فيها العقول ومكتاب تتوسع فيها المعارف. وعندهم ما لا يحصى من الصحف العلمية والادبية ينشها كبار العلماء الذين لا يذكرون الا الحقائق وهي رخيصة الثمن لكثرة ما يطبع وينشر منها فيسهل على كل احد الاشتراك فيها. هذه المزاياب كلها تقاوم انتشار المضار والاضاليل او تحو اثرها من النفوس

ولو كانت شكوانا من الروايات السمجة وكتب المجون لا غير لكان الامر لان هذه الكتب تعرف من عنوانها فلا يطالعها من يرض بوقته او يكره ان يرى الفاحشة بعينيه. لكننا نشكو ايضاً مما تخفى مضاره على العامة وقد تخفى على بعض الخاصة. نشكو من الكتب التي تنشر لاسية حلة العلم وتظهر عليها دياجة التحقيق وفيها من السخائف والمخرفات ما يزيد ظلمة العقول وظلمة ويرسخ الاهام في النفوس

وقد كنا نرى هذه السخائف في الكتب العربية القديمة التي طبعت قبل انتشار المعارف

لكنهم لم يستطيعوا ان يناظروا المعامل الاوروبية فاضطروا ان يوقفوه بعد ان انتقوا عليه النفقات الطائلة . ولا امل بنجاح . معامل الورق عندنا الا اذا زاد عدد القراء اضعاقا فكثير انتشار الجرائد العربية حتى صار الورق الذي يستعمل فيها سنويا يقتضي اثناء مهملين او ثلاثة كل منها يصنع مليون كيلوفي اليوم . وقد لا تقوى على مناظرة الاوروبيين على كل حال لان الجانب الاكبر من الورق الرخيص خشب والخشب يزوق به من اوربا واميركا بقلبه ورقا ارخص من جايه خشبا . وكذلك القوة المطلوبة لادارة آلات العمل تستمد من الفحم الحجري وهو وارد من اوربا ايضا فتضاف اجرة شحنه الى ثمن الورق فيغلو به

ويقال في انواع الورق واشكالها والوانها ما يقال في سائر المعروضات من الكثرة والتنوع فان من الورق ما هو صفيق كالرق ومنها ما هو شفاف كالزجاج ومنها ما هو ابيض كاللؤلؤ ومنها ما هو ملون بكل لون معروف ومنها المصقل والخشن والمنقوش وغير ذلك مما يطول شرحه ويتعدى وصفه

اما قناني الطيوب وحناجرها والازهار التي تستخرج الطيوب منها والخزائن التي عرضت فيها والرفوف التي وضعت عليها فقد قُصد بها كلها ان تسر حاسة البصر باشكالها والوانها كما تسر الطيوب حاسة الشم بطيب رائحتها

والبنج معروض في كل مكان تقريبا في قصور الدول والاثناييدوشان دو مارس كأنه اروج تجارة في الدنيا . وتنان العارضون في عرض اوراقه مبسطة وملفوفة وعرض سكاثره وآلات لها والورق الذي يلف به والاحجار (الغلابين) التي يحرق فيها . ولا ندري متى يعدل الناس عن عادة نفعها قليل وضررها كثير ويزرعون الارض التي يزرعونها تبعا طاعتها تغذي به الابدان وتنفقون الاموال التي ينفقونها عليه في عمل مفيد لنوع الانسان

وقد امكنني اتمام الفرنسي بيت بممل الثقاب (عيدان الكبريت او الفسفور) بودفعهم الجوائز لمن يستنبط نوعا منه خاليا من الفسفور السام والثقاب عندم اعلى مما هو عندنا اضمافا الاضمافا كان حكومتهم لم تجد غير هذا السبيل لجمع المال على اسلوب يثمر بشقله الفقير كما يشعر به الغني او اكثر لان زوجة العامل الفقير تضطر ان تستعمل من عيدان الثقاب اكثر مما يستعمل في بيت جارها التاجر الغني لكن اهتمام الفرنسيين وغيرهم من الامم الاوروبية بانقان هذه الصناعة قد رخص مصنوعاتها في بلادنا الى حد لم نعهد له مثيلا . وقد شاهدت معامل الثقاب في رحلتي الاولى الى اوربا ووصفتها فيها بما يعني عن اعادة الوصف